إيليّا أبو ماضي

ملامح عامة... وخلاصة تجربة رائعة

شد العمق إلى الضوء، وربط الأغوار بالقمم.

أفقي مدى العين، وعمودي حتى القرار، كأن خطوط الزمن التقت عنده!

إيليا أبو ماضي، الشاعر المحور، له على كل مظهر من الحياة يد، وفي كل منحى من النفس منتجع.

في تاريخ أعوامنا سنة ألف وثماني مائة وتسع وثمانين سنة شعرية غنم منها لبنان الكثير.

من قرية المحيدثة، إلى الإسكندرية، إلى أوهايو، إلى نيويورك مدينة المدن، وصل الرجل أسفاره.

أما الشاعر، فمن الجبل، إلى المحيط، إلى الزمان، إلى ما بعده، حسب تعبير الأديب الناقد أنطون قازان في مقال متميز له نشره في مجلة "**الغربال**" اللبنانية.

لم تتح له الأيام أن يتقن العلم، فسلخ من المدرسة وهو في الحادية عشرة، وذهب إلى تحصيل رزق. وهناك في متجر وضيع في الإسكندرية، راح ذلك الولد الذي "**دنياه كانت ههنا**" يصارع الزمان، يملأ فراغه بما تيسر من مطالعات. إلى أن اكتشفه فقيد الصحافة والأدب أنطون الجميل، فنشر له أولى قصائده في "الزهور".

وقبل أن يبلغ العشرين كان له ديوان "**تذكار الماضي**" ويضيف الأديب الناقد أنطون قازان:

قيمة هذا المجموع الشعري أنه تأكيد لوعد وتبشير بشاعرية. لكن تلك الموهبة الأصيلة لم تكن إلاّ لإلحاح في البعد وإصرار على الكشف في غياهب

obeikandi.com

النفس والإنسانية، فما لبثت أن انفتحت أمام عينيه آفاق ودنيوات، وإذا به شاعر النفس والحياة بكل ما في الكلمتين من شمول واتساع.

انتقل إلى نيويورك سنة ألف وتسعمائة وست عشرة، بعد الإسكندرية وأهايو، فتعرف إلى جبران وانضم إلى الرابطة القلمية. وبعد سنوات ثلاث أصدر الجزء الثاني من ديوانه مع مقدمة لجبران.

أنشأ مجلة السمير الشهرية، ثم حولها إلى جريدة يومية. وظل يتسلق القمم حتى بلغ في ديوانه "**الجداول**" ذروة سامقة، أطل منها على عوالم قلما انكشفت لسواه من شعراء زمانه. وعاش من ثم على القمم.

نشر "**الخمائل**" بعد "**الجداول**"، ثم جاء إلى لبنان سنة /١٩٤٨م/، بدعوة من الحكومة اللبنانية لحضور مهرجان الأونسكو، فكان موضع حفاوة الأوساط الأدبية والجهات الحكومية. ثم عاد إلى نيويورك، حيث توفى سنة /١٩٥٧م/.

أما مذهب إيليا فمحبة شاملة وابتسام دائم. يشيع في نتاجه الشعري روح متفائل بنّاء نتيجة إيمانه بجمال الحياة.

قدّس الحب، وقد شغله عمره، فهو لا يمكنه أن يتصور الدنيا بلا أحباب.

أرقته الحقيقة فسعى إليها، وفكّر طويلاً في مصدر الحياة وفي الموت وما وراءه، فرسم علامات استفهام ضخاماً ولا سيما في "طلاسمه" بأسلوب شعري رائع.

صوّر الحيرة أروع تصوير، وتمكن بمهارة أن يوفق بين الفكرة والصورة.

على أن ما يمتاز به أبو ماضي بصورة خاصة، قدرته الفائقة على نقل تعبيره هو كإنسان إلى تعبير كل إنسان.

لجأ إلى الأسطورة والرمز للتعبير عن إحساسات مجتمعه، وحقائق واقعه فتجاوب تجاوباً تاماً وروح أمته ونزعاتها.

جدّد دون تهور، وحافظ على خصائص الشعر الأصيلة. لقد غيّر في تتبع الأوزان وبدّل بالقوافي وتصرف ضمن حدود معينة بكثير من المقررات القديمة باعثاً في كل ذلك روحاً مجدداً.

obeikandl.com

القصيدة عنده موضوع كامل، وكل منسق على ارتباط وتماسك.

أدخل الحوار إلى قصائده فأسعفه على بلوغ كثير من غاياته.

أما من حيث مصادر ثقافته، فقد نلمح في أعماق عطائه بعض جذور تتلاقى وشكوك المعري في شعره التأملي وأسئلته الكونية، ولهو النواسي في شعره المجوني، وبعض عباقرة الغرب المجددين. على أن كل ذلك يضيع في اتساع ذاتيته ومدى أصالتها. إنه شاعر الفكرة.

كل قصيدة من قصائده تعبر عن فكرة أساسية بنى عليها موضوع شعره. فهو لا يبث عاطفة لمجرد بثها، ولا يرسل تنهدة ليفرج عن نفسه، ونظنه في معظم شعره لا ينظم تحت تأثير عاطفة، بل تخالجه فكرة، فيرسم موضوعاً ويخرج قصيدة.

"**فالعنقاء**" يمثل فيها السعادة و"**السجينة**" تصور أنانية الناس وجور القدر ومدى التفاوت في المكافأة، و"**الضفادع والنجوم**" يصوّر فيها الغرور، و"**التينة الحمقاء**" تفسر مساوئ الأنانية وعدم التعاون، و"**الحجر الصغير**" توضيح لضرورة التعاون الاجتماعي حتى في أتفه الأشياء.....

وينهي الأديب الكبير أنطون قازان تحليله الموفق بما لفظه:

ـ وعلى الجملة.. فإن إيليا قمة عالية في الشعر العربي الحديث. حسبه أنه شاعر الفكرة، وباعث الموضوع، وحامل الواقعية إلى مستوى شعري عال عمق دون غموض واتسع دون تسيب، وأشرق دوماً على إنسانية شاملة، بأسلوب جميل. إنه مجمل شعري رائع.